

فصلية اللسان المبين (بحوث في الأدب العربي)
(علمية محكمة)

السنة السادسة، المسلسل الجديد، العدد الثامن عشر، شتاء ١٣٩٣، ص ٥٨-٧٩
دراسة مقدمة المدائح النبوية في العصر المملوكي*

حسين كلي

أستاذ مساعد بجامعة اراك

مجيد مهدوي

طالب الدكتوراه بجامعة لرستان

الملخص

إنّ قصيدة المدح النبوي وصلت إلى ذروة ازدهارها و نضجها في العصر المملوكي وقد اكتملت تمام الاكتمال في هذا العصر، وقد حاول شعراء المديح النبوي توسيع هذا الفنّ مع ذكر جزئياته بدقّة ولقد تفتّن شعراء هذا العصر في بيان أغراضهم الدينية مع ربطها بمقدّمة تمهّد لهم البدء بمدح الرسول(ص) و أصبح المدح النبوي فناً مستقلاً كفنّ من الفنون الشعريّة الأصيلة.

سنحاول في هذه المقالة دراسة مستهلّ القصيدة النبوية في هذا العصر و نعرّف فيه كنيّة مقدمة المدائح النبوية التي نقسّمها إلى نوعين؛ الأول: النوع التقليدي الذي جاء فيه: ذكر الأماكن المقدّسة، والوقوف على الأطلال والدمن، ووصف الطبيعة، ووصف الرحلة والمطية، والدعاء، والتغزل بالمحبوبة، والوعظ والاستغفار، والثاني: النوع المستحدث الذي برع فيه شعراء المديح النبوي في العصر المملوكي و يشتمل على: ذكر الله، والمدح المباشر، و تفضيل النبي(ص) و سموّه على الأنبياء الآخرين، و الردّ على النصارى و اليهود، و بكاء الشباب.

الكلمات الدليلية: مقدّمة القصيدة، المديح النبوي، العصر المملوكي

* - تاريخ الوصول: ١٣٩١/٠٩/١٢ تاريخ القبول: ١٣٩٢/٠٣/٢٥

عنوان بريدالكاتب الإلكتروني : h_goli@araku.ac.ir

١- المقدمة:

إنّ مقدّمة القصيدة كما كان ظاهراً من اسمها هي ما يبدأ به الشاعر قصيدته ممهداً لموضوعه الأساسي، ولاحظنا حسب ما قرأنا في كتب النقد أنّ هذه المقدمات كانت مستخدمةً من جانب الشعراء في القدم وإهم لم يودّوا الورود المباشرة في الموضوع الأساسي للقصيدة، بل قدّموا لها مقدّمةً تشتمل موضوع النسيب و وصف ديار الحبيب، و الرحلة و صعاب السفر في الوصول إلى الحبيبة و ما إلى ذلك لتستميل قلب المخاطب إلى سماع القصيدة لأغراضٍ شتى. و في العصر الأمويّ كان الكُميت بن زيد الأسدي^(١) هو الشخص الأول الذي نادى بترك الوقوف على الأطلال و الدمن، و حينما وصلنا إلى العصر العبّاسي شاهدنا أنّ أساليب الحضارة المتجدّدة قد دخلت في تفاصيل الحياة العربيّة، و رأينا ثورةً على التقاليد القديمة لدى بعض الشّعراء، كبشّار بن بُرد و مسلم بن الوليد^(٢) وغيرهما الذين دعوا إلى التجديد في العمود الشّعريّ والأسلوب. (راجع: ابن رشيّق، ٢٠٠١م: ٢٣٧/١؛ بكار، ١٩٧٩م: ٢٨٢-٢٨٥)

و أيضاً يُعتَبَر الكُميت أوّل من دعا إلى الإقلاع عن الاستهلال الطللي، و ذكر الحبيبة، و وصف الناقية، مدفوعاً إلى ذلك بباعثٍ دينيٍّ محض و هو حبّه لأهل البيت(ع)، فرسم طريقاً للشعراء الآخرين، ليحريّ مجراه، لكنّه لم يكن يمتلك منهجاً أو رؤيةً متكاملةً حول البدائل الممكنة. (راجع: زكي مبارك، ١٩٣٥م: ١٠٥)

ولقد كانت القصائد النبويّة قبل العصر المملوكي متفرقةً في الموضوعات المختلفة و خاصةً سيرة الرسول(ص)، أمّا شعراء هذا العصر فترجموا السيرة النبوية ترجمةً كاملةً و أصبحوا مستعدّين لمُدح الرسول(ص) تمام الاستعداد، فحلّق المديح في آفاق رحبةٍ للشعر الدينيّ.

فقد أصبحت المقدّمة جزءاً لا يتجزأ من موضوع القصيدة في العصر المملوكي و نشاهد في دراسة المدائح النبويّة في هذا العصر أنّ الوقوف على الأطلال و الدمن غلبَ على مقدّمات القصائد، تمّ المدح المباشر و قد كان التغزّل، والشوق والحنين إلى الديار المقدّسة و فضل النبي(ص) على الأنبياء الآخرين في مرحلة تالية.

و في دراسة بدايات هذه القصائد المدحيّة لاحظنا أنّ المقدّمات قد تنوّعت مقدارها وتعدّدت أساليبها عند الشّعراء ويمكن لنا أن نقسّم مقدّمات هذه القصائد النبوية إلى نوعين: نوع تقليديّ موروث، و نوع مستحدث مُبدعٌ أوجده شُعراء المديح النبويّ عموماً والصرصري^(٣) خصوصاً.

١-١-١- خلفية البحث:

و لم تدرس بناء مقدّمات المدائح النبوية و كيفيّتها حتّى الآن بصورة وافية، أمّا الدكتور سالم محمود فأشار في كتابه «المدائح النبوية في العصر المملوكي» إلى بعضها بصورة عابرةٍ و سهّل لنا الطريق في دراستنا هذه.

و لشرح صورة هذا البناء و ظهورها، لا بدّ لنا أن ندخل إليه من باب دراسة مطالع القصائد المدحية النبويّة

عند شعراء العصر المملوكي، مكتشفين مزايا القصيدة النبوية خلال بحثنا. و واضحٌ أنّ شعراء المديح النبوي كانوا معتقدين بالأساليب المحددة في مدحهم، و أما فكرة هذه المقالة فهي تعيين منهج شعراء المديح النبوي في العصر المملوكي و هذا ما سندرسه في هذه المقالة من خلال دراسة موضوعنا هذا.

٢- النوع التقليدي:

ترك لنا الشعراء و الأدباء الأقدمون أساليب مختلفة من المقدمات المدحية و بدأوا قصائدهم بالوقوف على الأطلال و الدمن و ذكر منزل المحبوبة والتغزل بها وما إلى ذلك، و كان الشعراء يكررون هذه المقدمات التقليدية، ويستعملونها في مدائحهم بشكل ملحوظ. و تسربت هذه الأساليب في مقدمات القصائد النبوية، و ذهب شعراء المديح النبوي كلّ مذهبها، ولقد تنوعت أساليب تلك المقدمات عندهم ومنها؛ ذكر الأماكن المقدسة، وأيضاً ذكر الأطلال و الدمن، و وصفوا الطبيعة لا على طريقة القدامى الذين وصفوها ميتة جامدةً تعكس صورة الصحراء العربية القاحلة، وإنما بصورة أخرى مشرقة زاهية نضرة تعكس قدرة الخالق على إحياء الأرض البالية و التراب الميت و يظهر لنا تأثرهم بالقرآن الكريم في هذا المجال و تحدّثوا فيها عن سرورهم وفرحتهم العظيمة بزيارة الرسول(ص)، و قد ذكروا الرحلة ومشاقها حباً بالرسول(ص) وشوقاً إليه، ومن المقدمات التقليدية الأخرى أيضاً، هي عرض الوعظ والإرشاد والتحذير من هوى النفس، و قدّموا مدائحهم أيضاً بالدعاء و الاستغفار والتشفع بالرسول(ص). والتّعبي بديار الحبوب، ولكنهم غيروها حتى تتلاءم مع مدوحهم الشريف النبي(ص) و كانت متفاوتةً عن الطريقة الجاهلية.

وبعد أن قدّمنا فكرةً موجزةً عن أنواع المقدمات في القصيدة المدحية النبوية، سنتناول دراستها بشكل وافٍ لتعريف دورها الهامّ في تمهيد القصيدة النبوية.

٢-١- ذكر الأماكن المقدسة:

أخذ شعراء المديح النبوي يستعيضون شيئاً فشيئاً عن ذكر الأطلال و الديار التي درج عليها الشعراء بذكر الأماكن الحجازية، و التشوّق إليها، لأنّها كانت مناسبةً للمديح النبوي، فقدس المسلمون هذه الأماكن و هفت إليها أفئدتهم و هي التي شهدت ولادة الرسول(ص) و نشأته و بعثته و جهاده و انتقاله إلى جوار ربّه. (راجع: سالم، ١٩٩٦م: ٣١٧)

و نستطيع أن نقول إنّ الصرصري في العصر المملوكي وشعراء المديح النبوي الأقدمين كانوا رواد هذا الفنّ وقد عالجوا هذا الموضوع في مستهلّ قصائدهم.

وقد ذكر الصرصري تلك المعالم المقدسة داعياً لها بالخير والسّقيا فيقول:

سقى الله البطحاء ربيعاً مكللاً بتاج السنّا و العرّ غيناً مجلجلاً
مرّياً مرّياً إن همي ألبس الرّبي من الرّهر المنفّ و شيئاً مجللاً^(٤)

(الصرصري، ١٩٨٩م: ٤٠٣)

و أيضاً قوله:

يا ربة السرى لا انجابت عَواديك عَن جَوِّ مَغْنَاكَ أَوْ يَخْضَرَّ واديك
وَزِدْتَ فِي كُلِّ يَوْمٍ عِزَّةً وَ سَنًا وَ لَا خَلَا مِنِّ الْحَيِّ نَادِيكَ^(٥)

(المصدر نفسه: ٣٦٢)

و قد أشار الشاعر إلى الكعبة المشرفة فخطبها قائلاً: لا انقطعت السحائب التي تمطر صباحاً و استمرت خُضرة واديك دائماً و زادك الله رفعةً و مقاماً و لم يجل من الرجال الذين يزورونك مشتاقين إليك.

و يقول ابن الوردي^(٦):

أدُرُّ أَحَادِيثَ سَلْعٍ وَالْحَمَى أَدِرِ وَالْهَجْجَ بِذِكْرِ اللَّوَى أَوْ بَانِهِ الْعَطْرِ
مَنَازِلَ كَسَبَتْ بِالْمُصْطَقَى شَرْفًا بِأَفْضَلِ الْخَلْقِ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَرِ

(ابن الوردي، ١٩٨٦م: ٣٠١)

يقول شاعرنا مفتتحاً هذه المدحة النبوية بذكر المدينة المنورة التي كانت هجرة النبي(ص) إليها وإقامته فيها و انتقله إلى جوار ربه.

٢-٢- الوقوف على الأطلال و الدمن:

لقد جرى أكثر شعراء العصر المملوكي في مقدمة قصائدهم المدحة النبوية، الشعراء الأقدمين - خاصة الشعراء الجاهليين - في الوقوف على الأطلال و الدمن و أرادوا منها إثارة مشاعر السامع و استعداده للدخول إلى مضمون القصيدة.

و على هذا المنهج افتتح الصرصري إحدى مدائحه النبوية بذكر ديار المحبوبة و الحنين إليها و بالوقوف على الأطلال و الدمن، حتى وصل إلى مدح النبي(ص) فقال:

نَسِيمٌ سَرَى مِنْ نَحْوِ كَاطِمَةٍ وَهَنًا فَأَوْرَدَنِي مِنْ لُطْفِهِ الْمُرِيدِ الْأَهْنَى
وَ أَنْبَأْنَا أَخْبَارَ مَنْ سَكَنَ الْحِمَى عَنِ الْبَابِ عَنِ نَعْمَانَ عَنِ ذَلِكَ الْمَعْنَى
وَ عَنِ تِلْكَمَّا الْأَطْلَالِ عَنِ زَبُودَةِ النَّقَا عَنِ الرَّبِيعِ عَنِ تِلْكَ الدِّيَارِ عَنِ الْمَعْنَى^(٧)

(الصرصري، ١٩٨٩م: ٢٧)

و يذكر الصرصري الأطلال و الدمن في مقدمة مدحته النبوية متأثراً بالشعراء القدامى:

لَمَنْ طَلَّلَ دُونَ الرِّبَا فَالْتَبَائِثِ تَعَفَّى بِأَيِّدِي الْعَاصِمَاتِ الْعَوَائِثِ
مُنْخَرِقِ السَّرْبَالِ يَخْتَرِقُ الْفَلَا وَيُقَدِّمُ إِقْدَامَ الشُّجَاعِ الدَّلَاهِثِ^(٨)

(المصدر نفسه: ٨٠)

٢-٣- وصف الطبيعة:

جرى شعراء المديح النبوي في العصر المملوكي بجرى شعراء المديح التقليدي في وصف الطبيعة و لكنهم اختلفوا عمّا دأب عليه المدّاح القدامى و لم يصفوا الصحراء القاحلة و حرارتها و حيواناتها الضارّة بل وصفوا الطبيعة النضرة التي تعكس فرح نفوسهم بزيارة الرسول(ص) و حاولوا أن يصفوا قدرة الله في إحياء الأرض الميتة و في خلق الموجودات و الأزهار المتنوّعة.

وقد أكثر الصرصري من تصوير المطر و الأزهار الجميلة التي سترت الطبيعة في الربيع و النسيم في ثنايا أبياته، فافتتح إحدى قصائده بالحديث عن المطر و الأزهار فقال:

وَكسْتِكَ حُلَّتْهَا يَدُ الْأَزْهَارِ	حَيْتِكَ أَلْسَنَةُ الْحَيَا مِنْ دَارِ
فَضَّ النَّسِيمُ لَطِيمَةَ الْأَسْحَارِ	وَتَعَطَّرَتْ نَفَخَاتِ تُرْبِكَ كَلَّمَا
و بِكَ انْقَضَتْ مُحَمَّدَةٌ أَوْطَارِي ^(٩)	فَلَأَنْتَ مَعْهَدِي الْقَدِيمِ وَ مَا لَفِي

(الصرصري، ١٩٨٩م: ١٨٧)

كما قال الصرصري في تقديمه لإحدى مدائحه النبوية:

رِسَالَةٌ كُتِبَتْ بِالنُّورِ وَالنُّورِ	حَطَّ الرَّبِيعُ بِأَقْلَامِ النَّبَاثِيرِ
لَمَّا أَتَتْهَا يَدُ الْبَشْرِ بِمَنْشُورِ	حَيَا الْبِقَاعِ الْحَيَا فَاهْتَرَّتْ هَامِدُهَا

(المصدر نفسه: ٢١٨)

وتظهر هذه المقدمة أنّ الصرصري أراد أن ينتقل من الظواهر الدنيوية إلى الظواهر المعنوية، بحيث تأثر بالقرآن الكريم حيث قال الله تعالى: ﴿ وَ هُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴾ [الحج/٦٦] و أيضاً من هذه الآية الكريمة: ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ [الأنعام/١٢٢]

و أمّا صفّي الدّين الحليّ فقد وصف الطبيعة و أظهر براعته في وصف مظاهرها الخلابة المشرقة التي اهتم بها كلّ سامعيها و كان الحليّ متفكراً في الموجودات المتنوعة و الثمينة التي خلقها الله تعالى و هذا ما أوضحه الحليّ في تقديم إحدى نبوياته قائلاً:

بَدَتْ فَهَيَّجَتِ الْوَرَقَاءَ فِي الْوَرَقِ	فِي رَوْحِ الصُّبْحِ أَمْ يَأْفُوتُهُ الشَّفَقِ
فَأَكْسَبَتْ أَرْجَاءً مِنْ نَشْرِ الْعَرِقِ	كَأَنَّ دَكْرَ رَسُولِ اللَّهِ مَرَّ بِهَا

(الحلي، ١٩٩٧م: ٨٥)

وتحدّث الشاعر فيها عن الصبح وأثره الموجب في الطير والأغصان والنسيم والغيم، وعن الأرض وأزهارها بين الورود الجميلة وبعد ذلك انتقل إلى أبياته الأصلية و المقصودة في قصيدته و هي مدح الرسول (ص) و ذكر بعض خصائصه .

و هكذا شعراء هذا العصر قد حوّلوا وصف الطبيعة في أشعارهم و صوّروها صورةً نضرةً مختلفةً عمّا قبلهم من الطبيعة.

٢-٤- الرحلة و وصف المطية:

شعراء المديح القدامى ذكروا رحلتهم إلى الممدوح واصفين طريق الرحلة و مطيتهم والصعاب التي واجهوها في الوصول إلى الممدوح ليأخذوا الصلّة و العطاء منه. و شعراء المديح النبوي نصحوا منهج الأقدمين في مدحهم و لكنّ مادحي الرسول(ص) كانوا صادقين في حديثهم عن الرحلة و مشاقها لأنهم يقومون بها للحجّ و زيارة النبي(ص).

يقول البوصيري^(١٠) مفتتحاً مدحته النبوية مجاهراً بحبه لأرض الحجاز، ومطلعها:

أزْمَعُوا الْبَيْنَ وَشَدُّوا الرِّكَابَا فَاطْلُبِ الصَّبْرَ وَخَلِّ الْعِتَابَا
وَدَنَا التَّوْدِيعَ مَمَّنْ وَدِدْنَا أَنَّهُمْ دَائِمًا لَدَيْنَا غَضَابَا

(البوصيري، ٢٠٠٢م: ١٠١)

وللصّرصريّ قصائد في هذا المجال، وقدّم لإحدى مدائحه النبوية وصف الراحلة، و طرفها من السير نحو مكة المشرفة في قصيدته اللامية التي افتتحها بقوله:

مَاذَا عَزَا الرِّكْبَ حَتَّى حَنَّتِ الْإِبِلُ وَ هَزَّتْ مِنْ طَرْبٍ أَعْطَافَهَا الْمَيْلُ
أَهَبَّ مِنْ جَانِبِ الْبَطْحَاءِ نَشْرُ صَبَا أَمْ طَارَحْتُنَا بِأَخْبَارِ الْحِمَى شَمْلُ^(١١)

(الصرصرى، ١٩٨٩م: ٣٧٤)

و القصيدة الأخرى التي استهلها بقوله:

يَا حُدَاةَ الرِّكْبِ الْحِجَازِيِّ مَيْلُوا فَبِنَعْمَانَ لِلرِّكَابِ مَقِيلُوا
فَأَرْجُوا فِيهَا الْمَطَايَا قَلِيلًا مِنْ وَجَاهَا فَقَدْ بَرَّهَا التَّحُولُ
وَانزِلُوا الْحَيْفَ مِنْ مَنَى فِيهِ ظِلُّ لِلْأَمَانِيِّ لِلتَّازِلِينَ ظَلِيلُ
وَاسْتَقْبَلُوا نَحْوَ الْأَبَاطِحِ إِنْ كَا نَ إِلَى رَبِّةِ السُّتُورِ سَبِيلُ^(١٢)

(المصدر نفسه: ٣٩١)

٢-٥- الدعاء و طلب المغفرة:

إلى جانب الحِكم و الوعظ و التذكير بالموت و طلب التوبة افتتح شعراء المديح النبوي بعض مدائحهم النبوية بالدعاء إلى الله تعالى و طلب المغفرة و كشف الكرب و الهم و التشفع بالرسول(ص) تمهيداً لمدحه. (راجع: سالم محمود، ١٩٩٦م: ٣٢٩)

يقول الصرصري في هذا المجال داعياً إلى تسبيح الله و ذكر قدرة الله في العالم و نعمه ليعتبر الغافلون:

سَبِّحْ لِرَبِّكَ فِي الظُّلَامِ الدَّاجِي وَ اذْكُرْهُ ذِكْرَ مُوَظِبٍ لَهَاجِ
سُبْحَانَ مَنْ رَفَعَ السَّمَوَاتِ العُلَا سَبْعاً وَرَانَ السَّقْفَ بِالْأَبْرَاجِ
وَاخْتَارَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ بَارِئاً أَوْلَادَهُ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجِ
وَاخْتَارَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ مُحَمَّدًا لِظُهُورِ دِينٍ وَاضِحِ الْمُنْهَاجِ^(١٣)

(الصرصري، ١٩٨٩م: ٩٠)

وقد تأثر الشاعر في إنشاد هذه الأبيات بالآيات الكريمة و منها: ﴿ ... وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلِ العُرُوبِ ﴾ [ق/٣٩] و ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة/٢٩] و ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [الإنسان/٢]

و أيضاً يقول الصرصري في هذا المجال:

يا نبيَّ الهُدَى عَلَيْكَ السَّلَامُ كَلِمَا عَاقَبَ الصِّيَاءِ الظَّلَامُ
زَادَكَ اللهُ رِفْعَةً وَ جَلالاً وَ بَهَاءً وَ عِزَّةً لا تُرَامُ

(الصرصري، ١٩٨٩م: ٤٨٢)

يقول الصرصري مُهدياً السلام على الرسول(ص) ما بقي الليل و النهار و يخاطب النبي(ص) قائلاً زاد الله رفعتك و جلالك و بهاءك و عزتك التي لا تُقصد.

و يستخدم الصرصري أسلوب الدعاء في مقدمة قصيدته قائلاً:

يا ربِّ صلِّ عَلَى المختارِ مِنْ مُضَرِّ وَ الأنبياءِ وَ جميعِ الرُّسُلِ ما دُكِرُوا
وَ صلِّ عَلَى الهادِي وَ شيعَتِهِ وَ صحبهِ مَنْ لَطِيَّ الدِّينِ قد نَشَرُوا

(البوصيري، ٢٠٠٢م: ٢٤٣)

يقول الشاعر يا ربِّ صلِّ على النبي(ص) الذي اخترته من قبيلة مضر و صلِّ على جميع الأنبياء(ع) مادام

ذكرهم ينطلق على الألسن و صلّ على الرسول الهادي(ص) و على شيعته الذين عملوا و جاهدوا في سبيل نشر الدين.

٢-٦- الغزل:

إنّ القصائد المدحية التقليدية قد تشتمل على التسيب في مقدّماتها فيغدو الشاعر متهيّجاً حينما يذكر محبوبته وهو واقف على الأطلال و الدّمن. و المدائح النبوية لم تخل من هذا النوع من الغزل الماديّ و خاصة شعراء المديح النبوي في العصر المملوكي حيث استخدموا هذا الأسلوب الغزلي في مدائحهم النبوية. و يشير إليها ابن حجة الحموي: «الغزل الذي يُصدّر به المدائح النبوية يتعيّن على الناظم فيه أن يحتشم ويتأدّب ويتضاءل ويشبّب مطرباً بذكر سُلّ ورامّة، وسفّح العقيق، والغدّيب، و... ويطرح محاسن المرء، والتغزل في ثقل الردف، ورقة الخصر، وبياض الساق، وحورة الحدّ، وخضرة العذار، وما أشبه ذلك» (ابن حجة الحموي، ١١٨٨٤م: ١١)

و قد استهلّ الصرصري قصيدته النبوية بالغزل:

يا سائق الركب لا تعجل فلي أربُ فوق الرّواحل حألت دونه الحُجُب
لعلّ بدر الدجى يُرخي اللثام لنا عن عارضيه فيشقى الوَلّة الوَصِبُ^(١٤)

(الصرصري، ١٩٨٩م: ٤٨)

يخاطب الشاعر سائق مركبه و يقول له تمهل، لي حاجة فوق هذه الرواحل و أمل أن يرفع البدرُ السّتارَ لنا لرؤية وجهه الجميل.

وقد بدأ صفّي الدّين الحليّ^(١٥) إحدى قصائده النبوية بمقدّمة غزليّة إذ يقيس النبيّ(ص) بالبدر المضيء حسناً فيقول:

كفى البدرُ حسناً أن يُقالَ نظيرُها فيزهي و لكننا بذاك نضيرُها
ثمّ يمّا العُشّاقُ خلفَ حجّابِها فكيف إذا ما أنّ منها سُؤزُها^(١٦)

(الحليّ، ١٩٩٧م: ٧٧)

وقد وصف الشاعر النبي(ص) بالبدر الجميلة التي كانت خلف السحاب وأنّ العُشّاقَ ثمّيم بماو يستخدم ابن الورديّ هذا المنهج في مقدّمة تغزليّة لإحدى قصائده النبوية:

قلّب كواهُ النّيبُ حتّى أنضجاً ما زالَ في بَحْرِ العُزّامِ مُلججاً
ومدّامعٍ سحّت وما سحّت على خدّ بجمرة لؤلؤها قد ضرجاً^(١٧)

(ابن الورديّ، ١٩٨٦م: ٢٨٥)

و يقول الصرصري مفتتحاً مدحته بالتغزل:

أَغْرَى الْحَبَّ بِذَاتِ السِّتْرِ لَوْمُهُ
فَبَانَ سِرُّ عَرَامٍ كَانَ يَكْتُمُهُ
أَتَى يِلَامٌ عَلَى التَّذْكَارِ ذَوْشَعْفٍ
مُتَيِّمٌ مَسْتَهَامُ الْقَلْبِ مُعْرَمُهُ^(١٨)

(الصرصري، ١٩٨٩م: ٥٣١)

و مثلاً آخر للصرصري:

هَذَا تَهَامُهُ فَاحِيسٌ غَيْرَ مَتَّهِمٍ
وَاعْلَمَ بِأَنَّ الْهَوَى عَنِ يَمْنَةِ الْعَلَمِ
كَمْ ذَا أَعْبُرَ عَنِ سَلْعٍ بِكَاطِمَةٍ
صَوْنًا وَعَنْ عَذَابَاتِ الْبَانَ بِالسَّلَمِ
لَا عَارَ فِي حُبِّ مَنْ أَهْوَى فَأَكْتَمُهُ
مَا يُكْتَمُ الْحُبُّ إِلَّا خَشِيَةَ التُّهْمِ^(١٩)

(المصدر نفسه: ٥١٧)

و قد افتتح ابن نُبَيْتَةَ المصري^(٢٠) مدحه النبوي متغزلاً:

صَحَا الْقَلْبُ لَوْلَا نَسَمَةٌ تَتَخَطَّرُ
وَلَمَعَهُ بَرَقِي بِالْعَضَا تَتَسَعَّرُ
سَمَى اللَّهُ أَكْنَافَ الْعَضَا سَائِلِ الْحَيَا
وَإِنْ كُنْتُ أُسَمَّى أُذْمَعًا تَتَحَدَّرُ^(٢١)

(ابن نُبَيْتَةَ، ١٨٢٥م: ١٨٠)

وكذلك فعل ابن نُبَيْتَةَ في بعض قصائده كقوله من قصيدة:

شُجُونٌ نَحْوَهَا الْعُشَّاقُ فَأُؤُوا
وَصَبٌّ مَا لَهُ فِي الصَّبْرِ رَاءُ

(المصدر نفسه: ١)

فيقول النَّبْهَانِيُّ^(٢٢) حول هذه المقدمات الغزليّة: «ولئن أسأوا من تلك الجهة بعض الإساءة، فقد أحسنوا من جهة مديحهم للنبي كلّ الإحسان، وقال: أتبع السيئة الحسنة تمحها». (النَّبْهَانِيُّ، ١٩٧٤م: ١٤/١)

٢-٧- الوعظ و الاستغفار:

إنّ شعراء المديح النبوي لم يقفوا عند هذا النوع من المقدمات بل استعملوها متنوعَةً ملحوظَةً وقدموا مدائحهم بالوعظ و الاعتبار و الحكم لأنّ هذه الموضوعات كانت مرتبطةً بالدين و الخشية من عقوبة الله كما قال عَزَّ و جَلَّ في كتابه الحكيم: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة/٩٨]

و قد استحسّن الشعراء و الأدباء أسلوب تقديم المواعظ و الحكم في مقدمات قصائدهم المدحية فيقول النَّبْهَانِيُّ في هذا الشأن: «ويستحسن أيضاً تقديم المواعظ والحكم في ابتداء مدائحه، لأنّها من الأمور النافعة المستحسنة طبعاً وشرعاً» (النَّبْهَانِيُّ، ١٩٧٤م: ١١/١).

كقول الصرصري في افتتاح إحدى قصائده النبوية:

مَقَامُ الْعُلَى صَعَبٌ عَزِيزٌ مَرَامُهُ
حَرَامٌ عَلَى غَيْرِ الشَّجَاعِ اسْتِلاَمُهُ

شَبَا الذَّابِلَاتِ السُّمْرِ فَوْقَ قُبَابِهِ وِ بِالْمَرْهَقَاتِ الْبَيْضِ تُحْمَى نَحِيَامُهُ
فَهَلْ خَاطَبْتُ بِكُرِّ الْمَعَالِي مُنَافِسٌ يَهُونُ عَلَيْهِ فِي الْوِصَالِ حِمَامُهُ
أَلَا رَجُلٌ بَحْمِ السَّمَاءِ سَمِيرُهُ وَمُؤْنِسُهُ عُفْرُ الْقَلَا وَ نَعَامُهُ^(٢٣)

(الصرصري، ١٩٨٩م: ٥٢١)

و قد افتتح الشهاب محمود^(٢٤) قصيدته النبوية قائلاً:

وَيْحَ نَفْسٍ عَلَى الْعُرُورِ مُقِيمَةً وَ هِيَ بِالسَّيْرِ عَنِ الْقَرِيبِ عَلِيمَةً
تَتَنَاسَى أَمْرَ الرَّذَى وَ هِيَ لَا تَأْ مَنْ مِنْهُ وَتُوبُهُ وَ هُجُومُهُ
خَابَ مَنْ نَامَ وَقْتَ إِمْكَانِهِ الْفُرِّ صَةً حَتَّى حَوَى سِوَاهُ الْعَيْمَةِ^(٢٥)

(الشهاب محمود، ١٢٩٧هـ ق: ٧٩)

يقول الشاعر و هو يعظُ مخاطبه: ويلٌ للأنفس و غرورها الذي يسير معها قريباً منها، فلا تنسَ الموت الذي كان يرصدنا دوماً و قد خسر من نام و لم ينتهز الفرص و لم يغتنمها.

و قد استهلَّ الشهاب محمود واعظاً مخاطبه:

اعْمَلْ حِسَابَ النَّفْسِ عَنِ هَفْوَاتِهَا وَ اسْتَدْرِكِ الطَّاعَاتِ قَبْلَ فَوَاتِهَا
وَاجْهَدْ لِنَفْسِكَ بِالْخُلَاصِ بِكَمِّهَا عَنِ غَيْبِهَا وَ الصَّدِّ عَنِ شَهْوَاتِهَا
وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْحَتْفَ مِنْ رُقْبَائِهَا فَاسْبِقْ بِتَوْبَتِهَا هُجُومَ وَفَاتِهَا
لَا شَيْءَ يَنْفَعُهَا سِوَى مَا قَدَّمْتَ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ قَبْلَ تَمَاتِهَا

(المصدر نفسه: ٢٣)

يقول الشاعر آمراً قارئ أشعاره بأن يكون حاذراً من هفوات نفسه و أن يستدرك الطاعات قبل أن يفوتها و أن يجتهد في خلاص نفسه عن ضلالها و في صدودها عن شهواتها و اعلم أيها الإنسان أن الموت يُراقبنا و تُب قبل أن يدركك و لا شيء ينفعك إلا ما قدّمت من الأعمال الصالحة.

٣- النوع المُستحدث:

هذا النوع من المقدمات اشتمل على موضوعات مختلفة منها: ذكر الله تعالى تسييحاً و حمداً، و بكاء على الشباب و على ما فات فيه من الفرص، و طلب شفاعة الرسول (ص)، و الرد على النصارى و اليهود، و تفضيل الرسول (ص) و سمّوه على الأنبياء الآخرين، و مدح الرسول (ص) مباشرةً، و هذه أمورٌ لم تُستخدم من قبل عند شعراء المديح النبوي.

والمقدمات المستحدثة التي ظهرت في مدائح شعرائنا كثيرةٌ و لكننا نشيرُ إلى أهمها التي نشاهدها في دراسة

القصائد المدحية النبوية.

٣-١- ذكر الله:

ذكر الله هو من أنواع المقدمات المدحية النبوية التي استحدثها شعراء المديح في العصر المملوكي ولاحظنا في دراسة الأشعار النبوية أنّ الصرصري والبوصيري كانا مهتمين بهذا الأسلوب.

يقول البوصيري حامداً لله:

إِلْهِمِ عَلَيَّ كُلَّ الْأُمُورِ لَكَ الْحَمْدُ فَلَيْسَ لِمَا أُؤَلِّتَ مِنْ نِعَمٍ حُدُّ
لَكَ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ الزَّمَانِ وَبَعْدَهُ وَمَا لَكَ قَبْلَ كَالزَّمَانِ وَلَا بَعْدَهُ

(البوصيري، ٢٠٠٢م: ١٧١)

و قد استهلّ البوصيري قصيدته بحمد الله بسبب إعطاء نعمه بغير حساب متأثراً بالآيات القرآنية حيث قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل/١٨] وقد اعتذر فيها عن النار التي احترق فيها الحرم الشريف و يسمي قصيدته بـ«تقديس الحرم من تدنيس الضرم».

يقول الشهاب محمود:

يَا مَنْ إِلَيْهِ بَعْرَهَ أَتَشَقَّعُ وَبَدَلْتِي أَعْنُو لَدَيْهِ وَأَخْضَعُ
يَا مُنْقَدَّ الْعَرَقَى وَ يَا مَنْ عَبَدَهُ يَدْعُوهُ فِي الظُّلْمِ الخُطُوبِ فَيَسْمَعُ
يَا كَاشِفَ الْكُرْبِ الَّتِي إِنْ أَعَجَزَتْ ضَرَّأُهَا فإِلَيْهِ فِيهَا يُرْجَعُ
يَا صَاحِبَ اللَّطْفِ الخَفِيِّ فَلَا تُرَى أَقْدَارُهُ وَالخَيْرُ فِيهَا يُصْنَعُ

(محمود، ١٢٩٧هـ: ١٥)

يقول الشاعر و هو يحمد الله بعزته ولا يزال يطبعه خاضعاً و خاشعاً و هو يضيف يا مجيب الدعوات و يا كاشف المصائب و يا أرحم الراحمين اشفع لنا و إنا إليك راجعون، كما جاء في كتابه الحكيم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام/٣٦] و ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس/١٠٧]

٣-٢- المدح المباشر:

وقد افتتح بعض شعراء المديح النبوي قصائدهم مباشراً أي إهم لم يقفوا على المقدمات التي ذكرناها سابقاً في هذه المقالة بل دخلوا في مضمون القصيدة بمدح ممدوحهم بعدم التقدّم بشيء.

و ذهب البوصيري هذا المذهب فيقول في همزيته التي مطلعها:

كَيْفَ تَرَقَّى رُؤْيَاكَ الْأَنْبِيَاءُ
يَا سَمَاءَ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ

(البوصيري، ٢٠٠٢م: ٤١)

ويقول الشهاب محمود مادحاً الرسول(ص) مباشراً دون أن يقفَ أمام المقدمات التي أسلفنا ذكرها:

يا رسولَ الإلهِ ضاقت بأمرِي
حيَلتِي و اعتزّت و ساوس فكري
فأزلِ راحمًا جَاهِك هَمِي
وَأغْنيني و أغْنِ بالبرِّ فقري
لا تُكلِّني إلى سِوى جَاهِك الضَّأ
في فَمَا لي سِوَاهِ يَكشِفُ ضَري^(٢٦)

(ا محمود، ١٢٩٧هـ: ١٧)

و يقول الصرصري:

سَلَوَانٌ مِثْلَكَ لِلْمُجِبِّ عَزِيْزٌ
وَعَلَيْكَ لَوْمَ الصَّبِّ لَيْسَ يُجُوْزُ
قَلْبِي ذُلُوْلٌ فِي هَوَاكِ و مَسْمَعِي
فِيهِ عَنِ اللَّوَامِ فِيكَ نُشُوْرُ
يَا مَنْ شَأَى بِجَمَالِهِ سَمَسَ الصُّحَى
و لِقَدِّهِ دَانَ السَّقْنَا الْمَهْرُوْرُ^(٢٧)

(الصرصري، ١٩٨٩م: ٢٣٦)

وقد استفاد صفيّ الدّين من هذا الأسلوب في مدحيته التي قالها في مولد الرسول(ص):

حَمَدَتِ لِقَضَلٍ وِلَادِكَ النِّبْرَانُ
وَأَنْشَقَّ مِنْ فَرَحِ بَكَ الْإِنْبَانُ

(الحليّ، ١٩٩٧م: ٨٢)

و استهلّ ابن نباتة المصري إحدى قصائده بأسلوب المدح المباشر معترفاً بعجزه في إعطاء حقّ النبي(ص) من المدح فيقول:

أَوْحِرْ مَدِيْحَكَ فَالْمُقَامُ عَظِيْمٌ
مَنْ كَانَ فِي سُورِ الْكِتَابِ مَدِيْحُهُ
مَنْ دُوْنِهِ الْمُنْتُوْرُ وَالْمَنْظُوْمُ
مَادَا تُسَاوِرُ فِكْرُهُ وَتَرْوُمُ

(ابن نُبَاتَة، ١٨٢٥م: ٤٢٨)

٣-٣- تفصيل النبي(ص) على الأنبياء الآخرين:

و من الأساليب المحدثّة الأخرى التي عرفها العصر المملوكي في ثنايا القصائد النبوية هي تفصيل النبي(ص) و سموّه على الأنبياء الآخرين حيث اهتمّ بها شعراء هذا العصر و خاصةً مجد الدين الوتري^(٢٨) الذي تفرد في

استخدام هذا الأسلوب في مقدّمة عددٍ من نبوياته، و هو يقول في مدحته النبوية:

زُنُوا فَضْلَ كُلِّ الرُّسُلِ مَعَ فَضْلِ أَحْمَدٍ تَرَوُا فَضْلَهُ عَن فَضْلِهِمْ يَتَمَيَّزُ
زَكَ قَدْرُهُ مَن ذَا يُجَارِيهِ فِي الْعُلَا يُبَارِزُ مَن أَمَسَى لَهُ الْعَرْشُ يَبْرُزُ
زَمَامُ الْمَعَالِي فِي يَدَيْهِ مُقَلَّبٌ وَ أَعْلَامُهُ فِي ذِرْوَةِ الْعِزِّ تُرَكُّزُ^(٢٩)

(التَّبَهَاتِي، ١٩٧٤م: ٢٠٣/٢)

يقول الوتري: أيها الناس إن وزنوا فضل كلِّ الرسل مع فضل النبي(ص) رأوا أنّ فضل محمد(ص) متميّز من الآخرين و أنّ زمام المعالي كان في يده و راياته مرتكزة في قمة العزّ.

وإليكم مثالا آخر منه:

عَلَيْكُمْ بِشُكْرِ اللَّهِ يَا خَيْرَ أُمَّةٍ نَبِيِّكُمْ أَعْلَى نَبِيٍّ وَ أَرْفَعُ
عَلَيَّ عَلَا فَوْقَ الْعُلَا يَطْلُبُ الْعُلَا فَأَمَسَى لَوْحِي اللَّهُ سِرًّا يَمْتَعُ^(٣٠)

(المصدر نفسه: ٣١٨/٢)

يقول مجد الدين الوتري أمراً قارئاً أشعاره بشكر الله لأنهم كانوا خير أمة بسبب النبي الذي أرسل الله لهم و كان الرسول(ص) أعلى الأنبياء و أرفعهم عليّ و هو حامل وحي الله إلى المسلمين.

و قد افتتح الوتري مدحته النبوية:

كَلَفْتُ بِأَمْدَاحِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ أَلَا فَاسْمَعُوا مَا عَن فَضَائِلِهِ أَحْكِي
كَبِيرٌ جَلِيلٌ مَجْتَبَى فَوْقَ رُسُلِهِ فَهَآ هُوَ بَيْنَ الرُّسُلِ وَأَسْطَةِ السَّلَكِ
كَدَارَةٌ بَدْرٍ وَجْهُهُ بَيْنَ صَحْبِهِ أَتَخْفَى عَلَيَّ النَّشَاقُ رَائِحَةُ الْمِسْكِ^(٣١)

(المصدر نفسه: ٤٨١/٢)

ويقول الوتري مظهرأ حبه و ولعه بمدح النبي(ص) و يتحدث عن فضله على الأنبياء الآخرين و هو العقد الفريد بين العقود الثمينة.

٣-٤- الرّدّ على النصارى واليهود:

و قد تفرّد البوصيري بهذا النوع من المقدمات المدحية بين شعراء هذا العصر، فهو يتحدث في مقدّمة قصيدته من مقاصده الدينية و الاعتقادية ثمّ ينصرف من ذلك إلى مدح النبي محمد(ص) و يقول في لاميته:

جَاءَ الْمَسِيحُ مِنَ الْإِلَهِ رَسُولا فَأَبَى أَقْلُ الْعَالَمِينَ عُقُولا
قَوْمٌ رَأَوْا بَشَرًا كَرِيمًا فَادَّعَوْا مِنْ جَهْلِهِمْ لِلَّهِ فِيهِ خُلُولا
وَ عَصَابَةٌ مَا صَدَّقْتَهُ وَأَكْثَرَتْ بِالْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ فِيهِ الْقَبِيلا

(البوصيري، ٢٠٠٢م: ٣١٥)

يقول الشاعر أرسل الله المسيح و لكنّ بعض ذوي العقول الضعيفة أبوا أن يكون نبياً و يعتقد القوم من جهلهم أنّ المسيح بشرٌ متميّزٌ لهذا أحلّ الله فيه كريم الصفات و إنهم لقومٌ كاذبون.

و يهجو البوصيري النصارى و اليهود قائلاً:

إنّ النصارى و اليهود معاشرٌ
لو أنّ فيهم عوراً عن باطلٍ
جُبلوا على التحريف و التبديل
أبُثسوا على التوراة و الإنجيل

(المصدر نفسه: ٤١٦)

يعتقد الشاعر أنّ النصارى و اليهود اعتادوا على تحريف كتبهم و تبديل ما فيها و أمم عميٌّ و إن لم يكونوا عمياً لحفظوا كتبهم من التحريف.

٣-٥- البكاء على الشباب:

ومن القضايا التي كان يستخدمها الشعراء في قصائدهم هفوات الشباب وجهالات الهوى التي يعترفون بها فيطلبون من الله أن يغفر لهم . يقول البوصيري مستخدماً هذا النوع من المقامة في مدحته النبوية:

إلى متى أنتِ بالذاتِ مشغولٌ
في كلّ يومٍ تُرَجِّي أن تُثوبَ غداً
وَأنتِ عن كلّ ما قدّمتِ مسؤولٌ
جاء النذيرُ فشمّر للمسيرِ بلا
وَعقدُ عزمك بالتسوية مخلولٌ
مهلّ فليس مع الإندار تمهيلٌ

(المصدر نفسه: ٣٨٧)

وقد افتتح الشاعر قصيدته واعظاً قارئ أشعاره بيدي ندمه من مزاولته اللذات الدنيوية في أيام الشباب وأنه لم يفكر في نتيجة أعماله وأنه سيكون مسؤولاً في يوم القيامة عمّا فعله. وقد تأثر بالآيات القرآنية في مدحه حيث قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ وَ يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً ﴾ [النبا/٤٠]

ويقول الصرصري باكياً على أيام شبابه:

لي بين سلعٍ و العقيقِ غُهوُدٌ
أيامٍ أرفلُ في جلاليبِ الصبَا
بليّ الشَّبَابِ و ذِكْرُهُنَّ جَدِيدُ
و عَلَيَّ مِنْ خَلَعِ الوِصَالِ بُرُودُ
في مَرَبِعِ رَحَبِ الجَوَانِبِ للرِّضَا
و الرِّوْحِ فِيهِ طَائِرٌ غَرِيدُ^(٣٢)

(الصرصري، ١٩٨٩م: ١٢٨)

و يذكر الشاعر الموضعين اللذين له موثيقٌ فيهما و وقد فوّت شبابه و بقي له ذكرهما فقط، الأيام التي لبس فيها ثوب الشباب و خلعها في أيام الشَّيب و عاش في منزل الشباب الواسع الذي كانت روحه فيه مطربةً كطائرٍ غزيرٍ.

النتيجة :

و قد لاحظنا أنّ مقدّمة المدائح النبوية في العصر المملوكي كانت مختلفة الأساليب و رأينا أنّ الشعراء يذهبون على مذهب القدامى و يبدأون قصائدهم المدحية النبوية بالوقوف على الأطلال و الدمن، و وصف الرحلة و المطية، و التغزل بالمحبة و ديارها، ولكنهم كانوا مختلفين في مناهجهم عن الآخرين، و قد تأثر الصرصري بالأقدمين تأثيراً ملحوظاً في مطالع قصائده و كان أكثر في استخدام أساليبهم القديمة.

و رأينا أنّ شعراء المديح النبويّ قصدوا في هذه المقدمات إظهار مقدرتهم الفنيّة و براعتهم الشعرية في الوصف و التصوير، و من جهة أخرى اختاروا الصور الحيّة الزاهية في الطبيعة ليبيّنوا حالتهم النفسية و سرورهم و قد أثروا في السامع الذي يتمنى زيارة الرسول(ص) أشدّ تأثير.

و شاهدنا قسماً آخر من الشعراء الذين يسيرون في المذهب المستحدث الذي ابتدعوه في مطالع قصائدهم، كذكر الأماكن المقدّسة، و التقديم بالدعاء أو الوعظ أو الاستغفار، و تفضيل النبي(ص) على الأنبياء الآخرين و لكنّ أكثرهم يبتعدون عن كلّ هذه المقدمات بشروع مدح النبي(ص) مباشرياً و هم يعتبرون أنّ هذا الأمر يبعدهم عن الصنعة و التكلّف و الحشو.

وهكذا لاحظنا الإبداع و التنوّع في مقدمات القصيدة النبوية و أيضاً شاهدنا أنّ شعراء هذا العصر كانوا متأثرين بالقرآن الكريم تأثراً مشهوداً في إنشاد مدائحهم النبوية عموماً و مقدمة قصائدهم خصوصاً. و أنّ كثرة شعراء المديح في هذا العصر أدّت إلى استخدام الأساليب المتنوّعة في المدح و أنّ مادحي الرسول(ص) يتلاعبون بالألفاظ الرصينة في مقدّماتهم المدحية.

و قد رأينا أنّ الموضوعات المختلفة و الفنون البيانية في قصائد المدح النبويّ تدلّ على قوّة الخيال الواسع عند شعراء العصر المملوكي. و أيضاً بعض الشعراء باشروا موضوع المديح بشكل وجداني من دون مقدمات مصنوعة و متكلّفة، و شاهدنا أنّ القصيدة كانت هيكلأً واحداً يجيش بالعاطفة و يدور حول الفكرة المنسجمة.

و وصلنا إلى أنّ المقدمات المستحدثة هي من إبداع شعراء المديح النبويّ في العصر المملوكي، إذ لم يكن هذا الأسلوب مألوفاً من قبل، و قد أجاد فيه الشعراء بين ذكر الله و طلب الشفاعة و بكاء الشباب و المدح المباشر للرسول(ص)، و تفضيل النبي(ص) و سموه على الأنبياء الآخرين .

وقد لاحظنا أنّ هذا العصر لم يكن منحطاً و أنّ قرائح الشعراء لم تكن جامدة، كما يتصوّر بعض النقاد و الأدباء بل هو عصر الازدهار و الإبداع في أنواع الأساليب الشعرية و أنّهم كانوا حاذقين في استخدام هذه الأساليب المستحدثة خلال بيان فكرتهم.

الهامش:

١- **الكميت بن زيد الأسدي**: ولد الكميت سنة ٦٠ هـ بالكوفة وينتهي نسبه إلى قبيلة بني أسد بن خزيمه من مضر. قيل إنه كان ذكياً حاضر الجواب منذ صغره، كاتباً حسن الخط، خطيباً بني أسد، فقيهاً متضلّعاً بالفقه، فارساً، شجاعاً، سخياً، حافظاً للقرآن، وهو أول من ناظر في التشيع مجاهراً بذلك، وهو أهمّ شعراء الشيعة، وأشهر شعره ما عُرف بـ «المهشميات»، قتل في خلافة مروان بن محمد سنة ١٢٦ هـ. (بروكلمان، ١٩٨٣م: ٢٤٢/١)

٢- **بشار بن برد العقيلي**: ولد في كفر شيمة (لبنان) سنة ٧٦ هـ وهو أشعر المولدين على الإطلاق. أصله من طخارستان ونسبته إلى امرأة عقيلية قيل إنّها أعتقته من الرق وكان ضريراً. نشأ في البصرة وقدم بغداد وأدرك الدولتين الأموية والعباسية و قد توفي سنة ١٦٨ هـ. (ابن خلكان، ١٩٤٨م: ١/٨٨) **مسلم بن الوليد الأنصاري**: هو صريع الغواني ولد سنة ١٣٥ هـ ببغداد وعاش فيها و قال الشعر في صباه ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء مكتفياً بما يناله من قليل العطاء، ثم انقطع إلى يزيد بن مزيد الشيباني قائد هارون الرشيد الذي اتصل به فيما بعد ومدحه ومدح البرامكة وحسن رأيهم فيه. ولما أصبح الحل والعقد بيد ذي الرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون في أول خلافته، قربه وأدناه وولاه أعمالاً بمرجان، ثم الضياع بأصبهان، ولما قتل الفضل لزم منزله ونسك ولم يمدح أحداً حتى مات بمرجان سنة ٢٠٨ هـ. (بروكلمان، ١٩٨٣م: ٣٢/٢)

٣- **الصرصري**: هو يحيى بن يوسف، وُلد في قرية صرصر قرب بغداد واستشهد في واقعة بغداد عندما غزاها المغول، درس على علماء عصره ونبغ في اللغة والفقه وكان شاعراً ينظم على البديهة سريعاً فصيحاً بليغاً. وتَميّز شعره بالكثرة والجدوة، (الصّفديّ، ١٩١١م: ٣٠٨) و من أهمّ آثاره: ديوانه الكبير الذي يشحنه بالأشعار الدينية والمدائح النبوية، و الدرّة اليتيمة والمحنة المستقيمة، و زوائد الكافي على كتاب الخرقى، وثؤفيّ شهيداً سنة ١٢٥٦/١٢٥٨. (**علي هاني**، www.aslein.net)

٤- ريّة الستر: الكعبة المشرفة. نجابت: انقطعت. الغواصي: السحائب التي تنشأ صباحاً. المغنى: المنزل. السنّا: الضوء. النادي: المجلس.

٥- البطحاء: مكة المكرمة. المكلّل: المرصع. جلجل السحاب: صوته. المريع: المنخصب. المريء: الهنيء. همي: سال. الرّبي: الأماكن المرتفعة. المفتن: كثير الأنواع. الوشي: الزينة.

٦- **ابن الوردى**: هو عمّار بن مظفر بن عمّار بن محمد بن محمد بن أبي الفوارس، أبو حفص، رَئس الدّين بن الورديّ، كان الشاعر ذا ثقافة واسعة، وكان من العلماء والأدباء الذين نظروا في كلّ صنف من صنوف العلم، وأخذوا من كلّ علم بطرف، (الشّوكاني، ١٨٦٨م: ١/٣٤٩) و من أشهر آثاره: ديوانه، و تاريخ ابن الورديّ، و منظومة اللباب في علم الإعراب، وألحان السواجع، ومنطق الطير، وثؤفيّ شاعرنا في حلب في درب بني السقّاح الذي يُعرف الآن بالسقّاحيّة بالطاعون سنة ١٣٤٨/٧٤٩. (www.shamela.ws)

٧- كاظمة: مكان في جهة المدينة المنورة . الوهن: نحو نصف الليل . أنبأنا: أخبرنا . الحمى: المكان المحمي . المغنى: المنزل . الأطلال: ما شخص من آثار الديار . الربوة: المكان المرتفع . النقا: التلّ من الرّمل و هو مكان في المدينة المنورة . الربيع: المنزل.

٨- النبائث: تراب البئر والنهر . الأثائث: الطوال التامات الكثيرات اللحم . الروامث: المساحات باليد.

٩- الحيا: المطر . فضّ: شقّ، فرق . اللطيمة: المسك . المعهد: المنزل . الأوطار: الحاجات .

١٠- البوصيري: هو شرف الدين محمّد بن سعيد، من أبرز الشعراء الذين عرفهم العصر المملوكي. و توجه إلى شعر المديح بعد أن أصيب بفالج أفضده عن الحركة، وقد بلغت قصائده النبوية أربع عشرة قصيدة، لكنّ عدد أبياتها تجاوز ألفاً وستّمائة بيت من الشعر، ولكنّ أشهر قصائده كانت قصيدتيّ البُرْدَة و الهمزية المعروفتين، و توفّي سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٩م. (الصّفديّ، ١٠٥/٣: ١٩٨٤م)

١١- عراه: نزل به . الركب: ركبان الإبل . حنّت: اشتاقت . أعطافها: جانبها . الميل: الميلان.

١٢- الحدادة: ج الحادي و هو سائق الإبل . نعمان: وادٍ قرب عرفات . المقييل: محلّ القيلولة و هي الاستراحة في وسط النهار . المطايا: الإبل المركوبة . الوجا: الحفاء من كثرة السير . براها: اسقمها .

١٣- اللّهاج: كثير الذكر في الثناء . الأبراج: ج البرج، الصّور الفلكية . أمشاج: الممتزج.

١٤- الأرب: الحاجة . الدّجى: الظلام . اللّثام: ما على الفمّ من التّقاب . العارض: صفحة الحدّ . الواله: الحيران من الحبّ . الوصب: المريض من الحبّ .

١٥- صفى الدين الحلبي: هو عبد العزيز بن سزّايا بن علي بن أبي القاسم بن أحمد بن نصر بن أبي القاسم بن أحمد بن نصر بن أبي العز بن سزّايا بن باقي بن عبد الله بن العريّض الطائي السّنبسيّ الحليّ، كان الحليّ شيعياً كأبناء الحلة التي مازالت شيعيّة إلى يومنا هذا. (الأمني، ١٩٩٤م: ٦٢/١١) و من أشهر آثاره: ديوانه، و الكافية البديعية في المدائح النبوية، و العاطل الحالي و المرخص الغالي، و توفّي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. (www.arab-ency.com)

١٦- نظيرها: شبيهاها، مثلها . يزهى: يعجب، يتكبرّ . النضير: النضر، الذهب و الفضة .

١٧- الملحج: المغرق . سخّ: انسكب . شخّ: انقطع، بخل . ضرّج: اختلط .

١٨- أغراه: حرّضه . ذات السّتر: الكعبة المشرفة . الغرام: الوُلوغ . الشغف: شدة الحبّ . المتيمّم: أسيرالحبّ . المستهام: المخون من الحبّ.

١٩- تامة الأرض: الأرض المنخفضة و يقصد منها هنا مكة المشرفة . العّلم: الجبل . التّهم: الرّيب.

٢٠- ابن نباتة المصري: هو جمال الدين ابن نباتة الملّقب بأمر الشعراء في عصره و هو من أحد الكتّاب المترسّلين بالأدب، و عُرف بنبوغه المبكر، و تتلمذ على يد أساطين العلم والأدب في زمانه، قصد شاعرنا الرحيل من مصر، فغادرها سنة ٧١٧هـ/١٣١٨م متوجّهاً إلى بلاد الشام، ليلتحق بأبيه طلباً للرزق، (ابن تَغْرِي بَرْدِي، ١٩٣٩م: ٩٦/١١) و من أشهر آثاره: ديوانه، و مطلع الفوائد و مجمع الفرائد، و الزهر المشور في فن الترسّيل، و المفخرة بين السيف و القلم، و توفّي سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م بمنزله بزقاق القناديل. (www.diwanalarab.com)

- ٢١- النسمة: النفس، العبد . تَتَحَطَّر: تتبختر . الغضا: الموضوع . تتسَعَّر: تشتعل . الأكناف: الجوانب .
- ٢٢- **النبهاني**: يوسف بن إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن محمد ناصر الدين النبهاني، القاضي الفقيه الصوفي، والشاعر الأديب، الأكثر من مدائح رسول الله محمد تأليفاً ونقلًا وروايةً وإنشاءً وتدويناً، (١٣٥٠هـ/١٩٣٢م). ونسبته إلى بني نبهان من عرب البادية بفلسطين، استوطنوا قرية إجزم التابعة لحيفا في شمالي فلسطين. تعلم بالأزهر الشريف بمصر (سنة ١٢٨٣ حتى ١٢٨٩هـ)، وتلقى فيها على أكابر علماء الأزهر. ولما أحيل للتقاعد سافر إلى المدينة المنورة، فجاور بها مدة، ثم عاد إلى بلاده وبقي فيها حتى توفي سنة ١٣٥٠هـ/١٩٣٢م. (الزركلي، ١٩٨٤م: ٢١٨/٨).
- ٢٣- الشبا: الحدّ . الذابلات: الرّماح . الحمام: الموت . السمير: الحادث ليلاً . عفر الفلا: الغزلان .
- ٢٤- **الشهاب محمود**: محمود بن سلمان بن فهد بن محمود الحنبلي الحلبي ثم الدمشقي ، أبو النشاء شهاب الدين : و هو أديب كبير . استمر في دواوين الإنشاء بالشام ومصر نحو خمسين عاما . ولد بجلب سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٥٦م ، وولي الإنشاء في دمشق . وانتقل إلى مصر ، فكتب بها في الديوان وكان شيخ صناعة الإنشاء في عصره ، ويقال : لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله . وهو إلى ذلك شاعر مكثر . له تصانيف و منها؛ (ذيل على الكامل لابن الاثير) و (أهني المنايح في أسنى المدائح) و (الذيل على ذيل القطب اليوناني) و (مقامة العشاق) و (منازل الأحباب ومنازه الباب) و (حسن التوسل إلى صناعة الترسل) و قد تُؤيِّ في دمشق سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م. (ابن شاعر الكتي، ١٩٧٣م: ٢٨٦/٢)
- ٢٥- الويح: الويل . الوثوب: دائم الوثبة و الهجوم . خاب: خسر .
- ٢٦- وساس: تدبير . الضايي: الواسع .
- ٢٧- سلوان: نسيان . عزيز: قلّ وجوده . الذلول: المنقاد . النشوز: النفور، العصيان . شأي: سبق .
- ٢٨- **الوتري**: محمد بن محمد بن أبي بكر بن رشيد ، أبو عبد الله ، مجد الدين الوتري ، ويقال له صاحب الوترية : واعظ شافعي من شعراء بغداد ، وبها وفاته . اشتهر بمجموعة من المدائح النبوية سماها الوتريات في مدح أفضل الكائنات ، وتسمى القصائد الوترية في مدح خير البرية و هي ٢٩ قصيدة مرتبة قوافيها على حروف المعجم و قد توفي سنة ٦٦٢هـ (الزركلي، ١٠٨٤م ، ٣١٨/٧).
- ٢٩- زكا: نما، ارتفع . الجاراة: المسابقة . يبارز: ينافس . الأعلام: الرايات . تركز: تثبت .
- ٣٠- العلا الأولى: السماوات . العلا الثانية: المراتب العالية .
- ٣١- كلفث: ولعث . المجتبي: المصطفى، المختار . السلك: الخيط الذي تنظم به الجواهر .
- ٣٢- سلع و العتيق: الموضوعين . عهود: موثيق .

المصادر و المراجع:

أ- الكتب :

١- القرآن الكريم.

- ٢- ابن تَعْرِي بِرْدِي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (١٩٣٩م). **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة؛** الجزء السابع، الطبعة الأولى، القاهرة: دار الكتب المصرية.
- ٣- ابن جِحَّة الحَمَوِي، تقي الدين أبو بكر علي بن محمد (١٨٨٤م). **خزانة الأدب وغاية الأرب؛** بيروت: دار القاموس الحديث.
- ٤- ابن خَلِّكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر (١٩٤٨م). **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛** الجزء الأول، تحقيق محمد عبد الحميد، الطبعة الأولى، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- ٥- ابن رَشِيْق القَيْرَوَانِي، أبو علي الحسن (٢٠٠١م). **الغُمْدَة في مَحاسن الشَّعر وآدابه؛** الجزء الأول، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلميّة.
- ٦- ابن شَاكِر الكَتِيبي، محمد بن أحمد (١٩٧٣م). **فوات الوفيات؛** الجزء الثاني، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، بيروت: دار صادر.
- ٧- ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحيّ (لاتا). **شذرات الذهب في أخبار من ذهب؛** الجزء الخامس، الطبعة الثانية، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر.
- ٨- ابن نُبَيْتَة المِصرِيّ، جمال الدين محمد بن محمد بن محمد (١٩٢٥م). **الديوان؛** بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- ٩- ابن الوَرْدِيّ، عُمَر بن المظفّر (١٩٨٦م). **الديوان؛** تحقيق أحمد فوزي الهيب، الطبعة الأولى، الكويت: دار القلم.
- ١٠- الأُمِيّنيّ، عبد الحسين (١٩٩٤م). **الغدير في الكتاب والسنة والأدب؛** الجزء الحادي عشر، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الأعلمي.
- ١١- بروكلمان، كارل (١٩٨٣م). **تاريخ الأدب العربي؛** الجزء الأول و الثاني، نقله إلى العربيّة، عبد الحلّيم النجار، الطبعة الرابعة، القاهرة: دار المعارف.
- ١٢- بَكَار، يوسف (١٩٧٩م). **بناء القصيدة العربيّة؛** القاهرة: دار الثقافة.
- ١٣- البوصيري، محمد بن سعيد (٢٠٠٢م). **الديوان؛** شرح وتعليق محمد التونسي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الجليل.
- ١٤- درنيقة، محمد أحمد (٢٠٠٠م). **معجم أعلام المديح النبوي؛** تحقيق ياسين أيوبي، بيروت: دار و مكتبة الهلال.

١٥- الزركلي، خيرالدين (١٩٨٤م). الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الطبعة السادسة، بيروت: دار العلم للملايين.

١٦- سالم محمد، محمود (١٩٩٦م). المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفكر.

١٧- محمود الشهاب (١٢٩٧هـ). أهني المنائح في أسنى المدائح؛ نسخة مخطوطة بخط مصطفى إبراهيم فتح الله، الرياض: جامعة الملك سعود.

١٨- الشوكاني، محمد بن علي (١٨٦٨م). البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع؛ الجزء الأول و الثاني، الطبعة الأولى، القاهرة: مطبعة السعادة.

١٩- الصرصري، يحيى بن يوسف (١٩٨٩م). الديوان؛ تحقيق مخيمر صالح، الطبعة الأولى، الأردن: جامعة اليرموك.

٢٠- الصَّفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك (١٩١١م). نكت الهميان في نكت العميان؛ القاهرة: مطبعة الجمالية.

٢١- (١٩٣١م). الوافي بالوفيات؛ الجزء الثالث، باعثناء المستشرقين الألمانين، استانبول: مطبعة الدولة.

٢٢- الحلي، صفي الدين، عبد العزيز بن سرايا (١٩٩٧م). الديوان؛ تحقيق عمر الطباع، الطبعة الأولى، بيروت: دار الأرقم.

٢٣- مبارك، زكي (١٩٣٥م). المدائح النبوية في الأدب العربي؛ القاهرة: دار الكاتب العربي.

٢٤- النّبهي، يوسف (١٩٧٤م). المجموعة التّبّهائية في المدائح النبوية؛ الجزء الأول، الطبعة الثانية، بيروت: دار المعرفة.

ب- المقالات و المواقع الإلكترونية:

٢٥- أبو زيد، علي (٢٠٠٧م). الموسوعة العربية الروسية؛ جامعة دمشق.

http://www.arabency.com/index.php?module=pnEncyclopedia&func=display_term&id=161879

٢٦- هاني، علي الرضا (٢٠٠٨م). في رحاب الصرصري؛ شماره ٢١ .

<http://www.aslein.net/showthread.php?t=9284&page=1>

٢٧- نعمتي، معصومه، (٢٠٠٧م). الرمزية في شعر ابن نباته؛ دانشگاه تربیت مدرس تهران، شماره ٣.

<http://www.diwanalarab.com/spip.php?article73>

٢٨- حمودة، الحداد، سليم (٢٠٠٦م). ابن الوردی؛ شماره ٨ .

<http://shamela.ws/index.php/author/770>

فصلنامهٔ لسان مبین (پژوهش ادب عربی)
(علمی - پژوهشی)
سال ششم، دورهٔ جدید، شمارهٔ هجدهم، زمستان ۱۳۹۳
بررسی چگونگی آغاز قصاید مدح نبوی در عصر مملوکی*

حسین گلی

استادیار دانشگاه اراک

مجید مهدوی

دانشجوی دکتری دانشگاه لرستان

چکیده

قصاید مدح نبوی در عصر مملوکی به اوج شکوفایی، پختگی و نهایت کمال رسیدند، شاعران مدح نبوی، تلاشهایی بسیار در هر چه بهتر گسترانیدن این فن با ذکر جزئیات آن به عمل آورده‌اند، این شاعران به سبب مدح کامل و دقیق خود به نهایت آرزوهایشان در مدح پیامبر(ص) دست یافتند. شاعران مدح نبوی در عصر مملوکی در بیان اهداف دینی خود، با مرتبط کردن آن به مقدمه‌ای که آن‌ها را برای ورود به مدح پیامبر(ص) آماده می‌کرد این فن را تنوع دادند و مدح نبوی در این عصر به فنی مستقل مانند دیگر فنون شعری اصلی تبدیل شد.

در این مقاله به بررسی سرآغاز قصاید مدح نبوی در عصر مملوکی می‌پردازیم و در آن چگونگی آغاز قصائد مدح نبوی را بیان می‌کنیم که آن را به دو نوع تقسیم کرده‌ایم؛ نوع اول موضوعات تقلیدی که در آن به بیان این موارد پرداخته‌ایم؛ ذکر اماکن مقدس، ایستادن بر اطال و دمن، توصیف طبیعت، توصیف سفر و مرکب آن، دعا کردن، تغزل به محبوب، پند و اندرز دادن و طلب مغفرت، نوع دوم موضوعات جدید که در شاعران مدح نبوی عصر مملوکی آن را ابداع کرده‌اند و عبارتند از یاد خداوند، مدح مستقیم و رو در رو، برتری دادن پیامبر(ص) به سایر پیامبران، رد اعتقادات مسیحیان و یهودیان و گریه کردن بر جوانی.

کلمات کلیدی: مقدمه قصیده، مدح نبوی، عصر مملوکی

* - تاریخ دریافت: ۱۳۹۱/۰۹/۱۲ تاریخ پذیرش نهائی: ۱۳۹۲/۰۳/۲۵

نشانی پست الکترونیکی نویسنده: h-goli@araku.ac.ir